

# فَكَانَهَا يَتِيمٌ

— ❦ — (١) — ❦ —

كان في قريةٍ بالقرب من باريس ارملة متقدمة في السن تدعى ارسولة ولها ولدٌ صغير يدعى أندري اعتنت بتربيته الاعتناء الشديد وكانت تحافظ على صحته ولبسه وسروره بمنتهى الحنو والشفقة . وربي الولد في حجر والدته وكانت تلتقط بمعظم الابتناج كل كلمة تسقط من فيه وتشارك معه في العابه . وكانت ارسولة مع فقرها الظاهري تجود بالمبالغ الكثيرة على ولدها فتلبسه كاولاد الامراء وتطعمه الخمر المآكل ولما اصبح اهلاً لتلقي العلوم ادخلته احدى المدارس العليا التي لا يدخلها الا ابناء سرة القوم واكابرهم

وكان اندري لا يعرف شيئاً عن والده سوى ما اخبرته والدته من ان اسمه ارسول وانه توفي قبل ولادة اندري ببضعة اشهر . وكانت ارسولة تأخذ اندري عند طلبه لزيارة ضريح والده فاذا بلغ المقبرة ارته ضريحاً بسيطاً لا نقش عليه ولا كتابة فيقف أندري ولا يرى هناك ما يوجب تأثره ولا سيباً وانه لم ير والده ولم يسبق له شيء من الارتباط بين الوالدين والاولاد . فلم يكن يشعر في نفسه امام ذلك الضريح زيادة عما يشعر به امام بقية القبور المنتشرة في تلك البقعة . وانحصرت محبته وعواطفه في تلك الوالدة الحنون فكان يرى ملذات الدنيا في قربها وسعادة الحياة في تقبيل يدها ومنتهى الغبطة النظر الى وجهها

ولما انهى أندري دروسه واتقن علومه عاد الى بيته وما عتم ان شعر بثقل الدين الذي عليه لولده في تربيته اياه وسهرها عليه وما انفقته على تربيته وتعليمه مع ان ظاهر حاله لا يدل على وجود تلك المبالغ في حوزة يدها . وكان يخاطر له انه

## الضياء

(٢١٩)

رهباً ترك والده شيئاً من المال وان والدته العجوز قد تكون انفتت جميع ما عندها .  
ولما خطر له هذا قال في نفسه قد حان الوقت الذي فيه يجب ان اسعى في اراحة  
والدتي والتعويض عليها بشيء يقال بعض اتعابها علي . ثم اخذ من ساعته يفكر  
في ما يجب صنعه وللشغل الذي ينبغي ان يسعى في التماسه ولم يفكر طويلاً لانه  
في اليوم الثاني وجد على مائدته كتاباً فض ختمه واذا به من ناظر الحرية يستدعيه  
لمقابلته في ذلك اليوم . فأمل اندري خيراً وما صدق ان جاء موعد المقابلة حتى توجه  
الى قصر الناظر فقدم اسمه وأذن له في الدخول

ولما بلغ اندري ردهة الجلوس رأى امامه رجلاً قد وخط رأسه الشيب وهو  
جالس الى مائدة يقبل في اوراقه الكثيرة ويكتب الاوامر اللازمة فياه بمزيد  
الاحترام والوقار . فقال له الناظر يظهر يا مسيو اندري ان لك اصدقاء من ارباب  
الخطط العالية فقد جاءتني وصاة بك من شخص عظيم يذكر انه صديقك ويود ان  
اكتب عنك اسمه . ولكن ما لنا ولهذا فاخبرني اين تلقيت دروسك وما هي مقدرتك  
العلمية وما العمل الذي تود ان تقلدك اياه . فاخذ اندري يجيب الناظر بفصاحة  
رائعة وعدوبة صوت فشرح له جميع ما تعلمه وانه ميل جداً الى الهندسة ولكنه لا  
يتوقف عن قبول اي وظيفة كانت لان غرضه كسب ما يعول به والدته العجوز التي  
افتت حياتها ومالها في تربيته وتعليمه . ثم بسط امام الناظر الشهادات التي احرزها  
فسبر الناظر جداً لما سمع ورأى وظهرت على وجهه علامات الارتياح العظيم ثم عمد  
الى مائدته فاخذ ورقة رسمية كتب عليها شيئاً ثم ختمها بالختم الرسمي وناولها لاندري  
وقال خذ هذا الامر بتعيينك مهندساً برتبة ملازم في فرقة الحرس الملكي براتب  
ثلاثين ليرة استرلينية في الشهر وسأرقيك كلما بلغني انك تستحق ذلك واعتقد فيك  
انك لا تلبث طويلاً حتى تحصل على رتبة جنرال . وما سمع اندري هذه الكلمات  
حتى تمثل والدته وتصور كم يسرها سماع هذا الخبر فتخرجت من عينيه دمعاً الفرح  
واخذ يشكر الناظر بعبارات بديعة اثرت في نفس الناظر جداً . ثم سأله ومتى يمكنك  
ان تشرع في الخدمة . قال سأوجه توّاً الى والدتي فاخبرها بهذه النعمة التي منحتها

واذ ذاك اكون متأهبا لتلقي اوامركم والعمل بها . فتبسم الناظر وقال اذهب اذًا اليوم وتمالَ غدًا صباحًا فقابلني في النظارة . فخرج اندري واسرع في الذهاب الى بيته . وهو لا يشعر ان قدميه تطلآن الطريق لشدة سروره . فبلغ البيت وقصّ على والدته ما حصل فسرت لسروره واخذت تستمطر على رأسه البركات . وفي الصباح التالي توجه الى النظارة حسب الامر فارتدى باللباس العسكري وانتظم في سلك فرقة وهو يهتز طرباً وجعل يقوم بواجباته كما ينبغي فكان مثال الطاعة والاجتهاد والذكاء وحسن السلوك . ولم يكن يصرف شيئاً من اوقات راحته الا الى جانب والدته وقد اصبح تعلقه بها يزداد يوماً عن يوم

ولم تمض على اندري اشهر كثيرة حتى تقدمت فيه التقارير الحسنة من رؤسائه الى نظارة الحربية فكان ينتقل انتقالاً سريعاً في درجات الارتقاء حتى فاق جميع اقرانه وحدث بعد ذلك ان صدرت الاوامر الى فرقة الحرس الملكي بالتوجه الى الجزائر والانضمام الى الجيش العام فيها فسرّ اندري بهذه الفرصة التي تمكنه من كسب اكاليل الغار وبلوغ الدرجات العليا وهو لا يرى في ذلك سوى سرور والدته وتيقنها ان اتعابها على ولدها لم تذهب ضياعاً ولكنه حزن جداً لمفارقتها وسافر اخيراً مصحوباً ببركاتهما ورضاهما

وكانت الاوامر قد سبقته من الناظر الى القائد العام توصيه باندرى وتشدد في وجوب الالتفات اليه واكرامه . ولم يكن اندري في احتياج الى مثل هذه التوصية فانه ما وصل الى المعسكر حتى عشقه القائد العام واحبه الضباط وأعجبت ببرايعته العساكر فاصبح موضوع حديث الفرنسيين في تلك الاصقاع وكان النجاح يقارن اعماله والتوفيق يخدم آراءه . ولكن العالم لا يخلو من اناس تجسد فيهم الحسد فلا ينامون ولا يهنا لهم عيش ان لم يصنعوا سوءاً . وكان في الجيش ضابط يدعى دندي لم يرق له تقدم اندري فعمد الى اذيته وكان اعداء الفرنسيين قد سمعوا باندرى وخشوا بأسه ورأوا تأخر احوالهم بعد وصوله فجعلوا يلتمسون ذريعة للتخلص من شره . وكان اندري اذ ذاك يشغل ببناء استحكام منيع وطد اساسه تحت رصاص

## الضيآء

(٢٣١)

الاعدآء ورفع جدرانهُ امام افواه مدافعهم بحيث اذا تم بناء الاستحكام المذكور تصبح الجيوش الفرنسية في قلعة منيعة في وسط تلك الصحراء. عوضاً عن بقآتهم في الخلاء معرضين لهجمات العدو في كل آن . فاغتنم دندي هذه الفرصة واجتمع ببعض زعمآء الاعدآء فما لأهم على احباط مساعي اندري على مبلغ من المال يؤدونه اليه ثم تمكن بمساع خفية ان اودع آساس الاستحكام المذكور مقادير من البارود. وصل بها اسلاكاً محشوة تنتهي الى امام معسكر الاعدآء . ولما قارب البناء تمامهُ جمع اندري رجالهُ وراء الاستحكام واخذ يرشدهم الى ما ينبغي صنعه فما شعروا الا وقد طار البناء امامهم الى عنان السماء على اثر نطلق كالعند القاصف ثم سقطت حجارته المتطايرة حولهم . فلم اندري ان في الامر خيانة ولكنهُ قبل ان يفكر فيما يصنع احاطت به وبشرذمته رجال الاعدآء وقتلوا اكثرهم واسروا الباقي ومن جملتهم اندري . اما الجيش الفرنسي فأخذ منه الذعر ككل مأخذ ولا سيما القائد العام فانه أصبح كالجنون وهو يودّ تخليص اندري مهما كلفهُ ذلك

ولما جاء دندي الى الاعدآء يتقاضى اجرة خيانه اخذه زعيمهم ونظر اليه نظرة ازدراء وقال لا خير فيك ايها الخائن بعد ان سمعت في اهلاك اخوانك والاضرار بيني جنسك فأحسن جزآء يُعطى لمن يقدم على مثل فعلتك هو حذف اسمه من بين الاحياء وأسترشي لاسمك الدنيء ان يُنسى وجودهُ . ثم امر بعض غلمانه فاخترقوا صدر دندي بخناجرهم وعلقوه على شجرة عبرة للخائنين ودامت الحرب مدةً طويلة وكما امتلك الفرنسيون موقعاً من الارض اقاموا به ورتبوا احوالهم ثم جدوا في متابعة العرب وآلى القائد العام على نفسه ان لا يرجع قبل ان يعرف ما حلّ بأندري ويخلصهُ ان كان باقياً في قيد الحياة اما اندري فسُتتت نفسه تلك الحال لما قاساهُ من ذلك الاسر وهو ككلا تذكر والدته يدوب قلبهُ في صدره فيبكي وينتحب . وبعد ثلاث سنوات تمكنت الجيوش الفرنسية من تشتيت شمل العرب ولا تسل عن فرحهم الشديد عند مقابلتهم لاندري حياً . وما استتبت بهم الراحة والصفآء حتى استأذن اندري في العودة الى

فرنسا لزيارة والدته فأذن له وعاد وهو غير مصدق بنجاته وبودّهِ لو ان في امكانه جذب شواطئ فرنسا اليه

ولما بلغ باريس توجه تَوّاً الى منزله القديم ولكنه لم يرَ ذلك الوجه البشوش آتياً لمقابلته ولم يسمع ذلك الصوت العذب مرحباً به ولا ذلك الصدر الفسيح يستقبله اليه . فوقف امام الباب وهو لا يجسر على الدخول وجلاً ورأه الجيران فتقدمت امرأة منهم وسألته من يريد فقال لها اريد السيدة ارسولة . فطفحت عيناها بالدموع وقالت ان ذلك الملك الطاهر مثال الرحمة والطف والانسانية لم يبق هنا فقد ذهب الى السماء واما الجثة فقد اعتنى بدفنها قومٌ جاءوا باريس لهذه الغاية وواروها في مدفن كنيسة نوتردام . فلم تقع هذه الكلمات على مسمع اندري حتى انفطر قلبه وجعل يتلف ويتعجب فتألب القوم حوله يسألونه ويؤسونه ولما هدا روعه طلب عربة وتوجه تَوّاً الى المدفن وهو يسكب العبرات ويصعد الزفرات . ولما بلغ المدفن وجد جمهوراً من سرة الفرنسيين يحتفلون بدفن سيدةٍ من كبارهم فزاده المنظر تأثراً ثم استدل على ضريح والدته فجثا امامه وهو يرشهُ بدموعه ويقبل ترابه مستطراً عليه الرحمة . وانه لكذلك واذا باحد رجال الجنازة قد اقترب منه وسأله أنت القبطان اندري ارسول . قال نعم . قال لك عندي هذه الرسالة وهي من السيدة التي ندفنها الآن . فاستغرب اندري الامر واخذ الرسالة فقرأ على غلافها ما يأتي « تسلّم هذه الرسالة الى المسيو أندريه ارسول بعد وفاتي » والتوقيع « البرنيسيس شامورين » . فزاد تعجب اندري واستغرابه ومال الى جانب وفتح الرسالة فقرأ فيها ما يأتي

« الى أندري برنس دي شامورين او الكنت لاتور — كما يجب

« يا ولدي العزيز وفلذة كبدي

« لا اذكر شيئاً من عواطفى الآن ولا احاول ان افتتح بدياجة لا لزوم لها فانا ماري لويز برنيسيس دي شامورين ربيت في بيت والدي بالعز والدلال على الفضائل المسيحية والتقوى . واحببت في السنة الرابعة عشرة من عمري فتّي من اسرة

## الضياء

( ٢٢٣ )

عريقة في الحسب والفضل والاحسان يدعى الكنت لاتور وكان آية الشهامة  
والكمال والعفة والاستقامة ولكنه كان قد اخنى عليه الدهر فسلبه اموال اسرته  
الطائلة وكان يعيش من كده واجتهاده . فلما طلبني من والدي امتنعا من اجابته  
لضيق ذات يده كشأن جميع الوالدين من كل الطبقات فعمد الكنت لاتور الى  
العمل والاجتهاد ليتمكن من الحصول علي . ولما زاد بنا الحب المتبادل ولم يبق  
لنا صبر على البعاد اتفقنا فتوجهت واياهُ الى دير مارل حيث عقدنا زواجا شرعياً  
وسجلنا زواجنا في دفاتر الدير ولم يدر بذلك سوى خادمتي الامينة ارسولة . غير اننا  
خفنا ان يشيع ذلك عنا وبعد مساع كثيرة واتخاذ وسائل شتى وفق لاتور الى الدخول  
في احدى الشركات وسافر الى الهند على امل ان يرجع بعد مدة قصيرة بال وافر  
يضمن له رضى والدي من اقتراي به ولكنه واسفاه لم يبلغ الهند حتى اصابه  
الطاعون وتوفي به . وغلبت علي المؤثرات فكنت افقد عقلي لولا حسن تدبير  
ارسولة فانها بذلت جهدها في اقناع والدي وسافت بي الى كرسباد لتقضي فيها  
سنة اشهر وهناك ولدت ولداً ذكراً دعوته باسم ايه اندري وعدت به وبارسولة  
الى دير مارل حيث سجلت ولادته وعمدته ثم اكرتت لارسولة بيتاً وولدت  
اليها تربية ولدي الوحيد وثمره محبتي الاولى وكنت ازوره يوماً فاقبل وجننيه  
النضيرتين واقضي الساعات الطويلة امام سريره وارى فيه وجه والده وملاحه .  
ولما كبر وصار قادراً ان يميزني وخشيت سوء العاقبة جعلت لا ازوره الا وهو نائم  
فاقبله بجرقة وكثيراً ما كانت دموعي تسقط على وجهه فتوقظه فكنت انسل بدون  
ان يشعر بي . ولما اتم دروسه سمعت لدى عمي ناظر الحربية فعينه برتبة حسنة وهو  
يجعل من هو ثم سافر الى الجزائر وكنت اتلقى عنه البشائر الجيدة والاخبار المنفرحة  
الى ان بلغني خبر اسره وآه ما اطول الليالي والساعات التي قضيتها في البكاء  
والنحيب والتضرع اليه تعالى ان يمن علي بمشاهدته مرة اخرى . والآن اثق تمام  
الثقة بانه وان لم يسمح لي الله بمقابلته فلا بد من خلاصه ورجوعه الى وطنه ولذلك  
اكتب اليه هذه الرسالة

« وقد توفيت ارسولة بسبب حزنها على ريديها اندري ودفناها بما تستحق من الاكرام في مدفن الاسرة وسأتبعها عن قريب حزناً على ولدي الوحيد . فاذا عدت يا اندري وانا حية فهي نعمة من الله والا فسيصالك كتابي هذا وبما ان والدي توفياً وتركالي كل املاكهما فانا اترك لك كل ما اتصل ويتصل بي من المقتنى والميراث وما عليك لاطهار حقوقك سوى الاستشهاد برئيس دير مارل فهو عارف بجميع ما جرى . اما اسمك فانت مخير في ان تنسب الى ابيك فتكون الكنت لاتور او تحافظ على اسم والدتك فتكون البرنس شامورين

« ولقد كنت اود ان اراك الآن فاضمك الى صدري قبل انقضاء نفسي الاخير . ولكي ارى الضعف قد بلغ مني وقد قربت من الاجتماع بالخادمة الامينة ارسولة فاستودعك الله يا ولدي الحبيب الى الملتقى في حضرته وثق انني من علو السماء اراك واطلب لك التوفيق والهناء »

وكان اندري يقرأ وهو كالمأخوذ واتم القراءة وهو لا يكاد يرى شيئاً من كثرة الدموع واذا بالذي احضر له الكتاب قد وقف امامه وقال له انا رئيس دير مارل ورسول والدتك التي ندفنها الآن فاذا شئت ان تودعها الوداع الاخير فاسرع قبل ان يهال علي ضريحها التراب . ورأى الكاهن ضعف اندري وشدة تأثره فاقتاده بيده الى حيث رأى جثة والدته فسقط عليها يقبلها ويغسلها بدموعه وهو يقول « كان تسليمها عليّ وداعاً »

ولازم الكاهن اندري فجعل يعزیه ويسليه على فقده والدتين في وقت واحد ثم سعى في اعلان زواج الكنت لاتور بالبرنيسيس شامورين وهكذا آلت الالقاء والثروة الى اندري . وكان من اول اعماله بعد ترتيب اشغاله ان بني ضريحاً فخياً جمع فيه جثة والده التي كانت قد احضرتها الشركة الى فرنسا وجثتي والدته ومريته فكان يزورهم صباحاً ومساءً وهو يفتح سلامه عليهم برضى الله ويحتمه بطلب رضى الوالدين